الزعيم كروبتكين

فى سنة ١٩٢١ وبأحدى القرى الروسية الصغيرة المنعزلة الغامضة الشأن المغمورة الذكر مات الزعيم الفوضوى الخطير الأمير كروبتكين ، بعد حياة عاصفة عامرة حافلة بالأعمال والأفكار والآثار .

وكروبتكين من أصحاب الشخصيات الممتازة التى قد لا نستطيع أن نقرها على كل أفكارها . ولا أن ننطلق معها إلى آخر أشواطها الفكرية ونهاياتها المنطقية ، ولكننا ننطوى لها مع ذلك على الاحترام والتقدير ، وهو رجل كان يستطيع أن يعيش فى رغد العيش آمن السرب مستمتعاً بالجاه العريض والمكانة المرموقة ، ولكنه آثر طريق الشوك وسبيل الجهاد ، وتنازل عن لقبه وامتيازاته لينضم إلى صفوف العمال ويستنهض هممهم ، ويبصرهم بحقوقهم .

وكروبتكين هو العالم البحاثة المطبوع الذى لم يدع هواتيه العلمية تستأثر به كل الاستئثار وتصرفه عن محاولة الإصلاح بالطريقة التى اقتنع بصحتها بعد التفكير العميق والحساب الدقيق . وهو الفوضوى الذائع الصيت والحجة الثبت الذى بشر بالتعاون المتبادل ، والتساند المشترك ، وأقام على أساسه نظرياته الأخلاقية . وهو نصير الحرية الذى أدرك ما يكمن من الطغيان والاستبداد فى الماركسية ، وحاول أن يغرس فى نفوس العمال حب الحرية . وهو المجاهد الدؤوب الذى انكر على البلشفيك اعتداءهم على الحريات وسنه تقارب الثمانين وقد هدم السقم بنيانه ونال الحرمان من كيانه .

وقد ولد كروبتكين فى سنة ١٨٤٢ من أسرة روسية عريقة ، ونشئ تنشئة

عسكرية ليشغل منصباً فى الجيش القيصرى ؛ وفى أوائل سنة ١٨٦٠ألحق ضابطاً بإحدى فرق القوزاق المقيمة على مقربة من نهر آمور فى سيبريا ، وقام بعد ذلك برحلات علمية كشفية فى نواحى سيبريا المجهولة وفى شمال منشوريا ، وكان يدرس فى أثناء ذلك التاريخ الطبيعى لهذه الأنحاء ، ويلاحظ حياة المجتمعات البدائية بها ، وقد تركت هذه الدراسة أثراً بعيداً فى تكوين آرائه الاجتماعية ونظراته السياسية ، وعاد إلى بطرسبرج فى سنة ١٨٦٧ وقضى أربع سنوات فى دراسة الرياضة والجغرافية ، وذاعت شهرته بين المتوفرين على الدراسات الجغرافية ، وعرضت عليه جمعية بطرسبرج الجغرافية أن يكون سكرتيراً لها ولكنه لم يقبل هذا العرض .

وفى خلال رحلاته الجغرافية المختلفة إلى الأنحاء القاصية فى روسيا رأى بعينه ما يعانيه أفراد الشعب من الفقر والإهمال وسوء الحال ، فمضى يكتب التقارير الفضفاضة الوافية ، ويقدم الاقتراحات المترعة بالغيرة على الإصلاح ومناصرة الفقراء إلى إدارات الدولة ومختلف الهيئات الحكومية ، ولكن عمله كان بدون جدوى . فقد كان القوم فى غفلة عن الإصلاح . ولم يكن لهم فيه أرب ، ولا لهم إليه نزوع ، لأن الإصلاح لا يحقق لهم غرضاً ، ولا يثيلهم نفعاً ، وينبه راقد الفتنة ، ويهيج كامن الشر ، وقد أثر هذا التراخى والجمود فى تفكير كروبتكين وجعله يعتقد أن الأمور لا يمكن أن تظل على هذه الوتيرة . وأنه لا علاج لهذه الأحوال السيئة المتخلفة إلاّ بالخروج عليها والثورة بها .

وفى سنة ١٨٧٢ أصبح من العاملين فى صفوف الثائرين ، ورحل إلى غرب أوربا . وقضى حينا من الزمن فى بلجيكا وسويسرة ، وهناك اتصل بالحركة التى كانت تدبر الثورات وترسم خططها ، وخالط أتباع باكونين الزعيم الفوضوى الشهير ، وراقته مبادئهم وقد أوضح لنا فى كتابه مذكرات «ثائر» سبب تركه

بحوثه العلمية الجغرافية فقال «بأى حق أستمتع بهذه المسرات العليا والشقاء حولى ضارب بجرانه ، وكل من أرى يجاهدون فى سبيل الحصول على كسرة من الخبز العفن ، وعلى حين أن كل ما أنفقه ليمكننى من أن أعيش فى عالم هذه العواطف السامية لابد أن يكون منتزعاً من أفواه هؤلاء الذين يزرعون الغلال ولا يجدون من الخبز ما يكفى لإطعام أطفالهم ؟ لابد أن يؤخذ ذلك من أفواه بعض الناس لأن مجموع إنتاج البشرية لا يزال جد منخفض» .

ويقول فى ناحية أخرى من هذه المذكرات «إن المعرفة قوة هائلة ، ويجب أن يتعلم الناس . ولكننا نعرف الآن الكثير ! فماذا يكون لو صارت هذه المعرفة – هذه المعرفة ليس غير – ملكاً للجميع ! ألا يتقدم العلم حينذاك فى وثبات . ويجعل الناس يتقدمون بخطوات واسعة فى سبيل الإنتاج والاختراع والخلق الاجتماعى ؟» .

وقد تفركروبتكين من الاشتراكية الماركسية ، ومال بكليته إلى الاشتراكية الحرة التى بشربها باكونين وأطلق عليها هذا الاسم البغيض وهو «الفوضوية» .

وعاد كروبتكين بعد ذلك إلى روسيا ، وأخذ يحاول تعليم المزارعين والعمال . وكان يعلم ما فى هذه المحاولة من خطر ، ولكنه لم يحجم عن ذلك ، وأقبل على المحاولة غير هياب ولا وجل حتى قبض عليه سنة ١٨٧٤ واعتقل فى حصن بطرس وبولس الرهيب ، وقضى فى هذا السجن عامين تابع فيها دراساته الجغرافية .

وفى سنة ١٨٧٦ تمكن من الهرب ووصل إلى بريطانيا ، وشغل حيناً بكتابة فصول انتقادية وعرض للكتب بمجلة الطبيعة ، وكتب بعض تعليقات فى الموسوعة البريطانية ، ثم ذهب إلى سويسرة ، وقضى هناك سنوات قلائل ، وأخرج منها سنة ١٨٨١ بسبب الرعب الذى أثاره مصرع القيصر الإسكندر

الثانى . وذلك بالرغم من أن كروبتكين لم يشترك فى مؤامرة قتل القيصر ، وفى سنة ١٨٨٢ اعتقل بفرنسا وأرسل إلى سجن كليرفو بتهمة زائفة مصطنعة ، وأثار حبسه احتجاج العلماء والكتاب ، وكان من الذين دافعوا عنه الفيلسوف البريطانى هربرت سبنسر والشاعران سوينبرن وفيكتور هيجو ، واضطرت الحكومة الفرنسية إلى الإفراج عنه فى سنة ١٨٨٦ فعاد إلى بلاد الإنجليز وأقام هناك إقامة دائمة .

وفرغ لا ستيفاء تعاليم مذهبه السياسى ، وطاف بأنحاء بريطانيا ، وألقى محاضرات للدعوة إلى مذهبة وبسط بها آراءه ونظرياته ، وكان من مؤسسى مطبعة الحرية التى ما زالت تتابع جهودها حتى الوقت الحاضر ، وشارك فى تحرير مجلة الحرية وهى كذلك لاتزال تتابع صدورها .

وعاد إلى بحوثه العلمية ، ورأى أن الحاجة ماسة إلى إقامة علم الاجتماع على أسس علمية بدلا من مناصرة المذاهب الأخرى التى ينقصها الاستناد إلى البحث العلمى الموضوعى ،

وقد ألف كروبتكين فى خلال المدة التى قضاها فى بلاد الإنجليز ثلاثة كتب تعد من أهم مؤلفاته وهى «كتاب غزو الخبز» وكتاب «الحقول والمصانع والمعامل» وكتاب «التعاون المتبادل» والكتاب الأول دفاع عن مذهبه السياسى ، والكتابان الآخران دراسات علمية للمظهر الاجتماعى ، وهما من المراجع الهامة للباحثين فى علم الاجتماع .

وكتاب «غزو الخبز» بالرغم من أنه قائم على الدعوة إلى أفكاره السياسية ونزعته الثورية فإنه مع ذلك مشبع بالروح العلمية ، وهو من المراجع التى يجدر بالباحثين فى تطور الأفكار الاجتماعية الحديثة الاطلاع عليها واستشارتها ، والفكرة التى يرمى إلى تأكيدها وبسطها هى أنه لا المذهب الفردى ولا مذهب

الاشتراكية الحكومية يستطيع أن يصل بنا إلى المجتمع الصالح الذى يرضى نوازعنا وتستريح عنده ركابنا ، ويلزم أن نقيم أحوالنا الاقتصادية والاجتماعية على أساس التعاون والتساند والمشاركة الحرة ، لا على التنافس المر من ناحية أو الإجراءات المقيدة من ناحية أخرى ؛ وقد رأى كروبتكين أن مذهب ترك الأمور تجرى فى مجاريها الذى أولعت به الرأسمالية فى القرن التاسع عشر يسفر عن مظالم جائرة ، وأنه قد أخفق الإخفاق كله فى حل مشكلة توزيع السلع ، ولكنه رأى من ناحية أخرى أن أفكار ماركس فى الاشتراكية الحكومية لا تعين كذلك على حل هذه المشكلة ؛ وأن زيادة سيطرة الدولة تنتقص الحرية ولا تزيد الرخاء المادى ، وأن التعاون الحر هو المبدأ السليم والهدف الأسمى والغرض المروم ، وكان يتطلع إلى اليوم السعيد الذى فيه يرى الحياة الإنسانية قائمة على مبدأ التعاون الحر والتضامن الاختيارى .

وفى الجزء الأخير من كتابه « غزو الخبز » يهاجم كروبتكين آراء معاصرية من الاقتصاديين فى مسألة الإنتاج والاستهلاك ، ويدفع عن رأيه فى عدم تركيز الصناعة ، ويهاجم نظام توزيع العمل ، ويؤكد أهمية الانتفاع بالأساليب العلمية فى الزراعة ، ومن أهم أسباب الخلاف بينه وبين الاقتصاديين أنهم يوجهون معظم عنايتهم إلى الإنتاج بدلا من العنايه بأمكانيات الاستهلاك ، وهو يرى أن آدم سمث وماركس نهجا هذا السبيل ، وأنهما لم يتناولا مسألة الاستهلاك إلا فى الأجزاء الأخيرة من كتبهما ، وهو يقول فى الرد عليهما « أما يلزم قبل إنتاج أى شىء أن نشعر بالحاجة إليه ؟ أليست الضرورة هى التى دفعت الإنسان إلى الصيد وتربية الماشية وزراعة الأرض وصنع الآلات وأخيرا إلى اختراع العدد الميكانيكية ؟ أليست دراسة الحاجات هى التى يجب أن تسيطر على الإنتاج ؟ فمن المعقول والمنطق أن نبدأ باعتبار الحاجات ثم نبحث بعد ذلك الإنتاج

وما يجب أن يكون عليه لكى يفى بالحاجات» والاقتصاد السياسى فى رأى كروبتكين هو «دراسة حاجات الإنسان ووسائل تلبيتها بأقل ما يمكن من المجهود الإنسانى» .

وينتقد كذلك كروبتكين فكرة الإنتاج الزائد عن الحاجة ، ويرى أنها أكذوبة من الأكاذيب ، وهو يذهب إلى أن إنجلترا مثلا كانت تصدر ما تزعم أنه يزيد عن حاجتها من الفحم ، والواقع أن الملايين من سكان الجزر البريطانية كانوا محرومين من النيران فى الشتاء ، والذى يصدر ليس هو الزائد عن الحاجة . ويشير كروبتكين إلى أسطورة صانع الأحذية الذى كان يسير حافى القدمين ! وإنما السبب الحقيقى للتصدير هو عجز الصانع عن الشراء لقلة الأجر الذى يعطى له ، فليس هناك زائد عن الحاجة كما يزعم الاقتصاديون ، وفى كتابه عن الحقول والمعامل والمصانع عاد إلى بسط فكرته فى عدم تركيز الصناعة ، وعارض فكرة التخصص فى الأعمال ، وكروبتكين يعتقد أن العمل اليدوى والعمل العقلى يلزم أن يتحدا ، فالكاتب المؤلف يلزم أن يكون صفاف حر ف ومجلد كتب ، والمؤلفون بطبيعة الحال لا يقرون كروبتكين على هذه الآراء ، ويخيل إلى أنه من إضاعة الوقت الثمين أن نحمل المؤلفين على ترك التأليف ليقوموا بأعمال قد لا يحسنونها ، وقد يكون غيرهم أقدر منهم على إتقانها وإنجاز عملها فى وقت أسرع ؛ ولكن كروبتكين كان يرمى من وراء ذلك إلى القضاء على فكره تركيز الصناعة ، فالعامل فى رأيه يجب أن يعمل فى الحقل وفى المصنع معا ، وكل أمة من الأمم يجب أن تستهلك ما تنتجه من الصناعة أو الزراعة ، وهو يرى أن الأمم يجب أن تعلم الأطفال فى باكورة حياتهم العلم والأعمال اليدوية معا ، وقد التفت المربون أخيرا إلى هذه الناحية ، وأدخلوا فى برامج الدراسة الأعمال اليدوية ، والأمم الصناعية التى لا تكفيها حاصلات

أرضها وتضطر إلى استيراد الأطعمة والمواد الغذائية من الخارج تستطيع أن تعالج هذه المسألة بتحسين أساليب الزراعة ومضاعفة إنتاجها الزراعى باتباع الأساليب العلمية الحديثة ، ونلمح من خلال ذلك أن كروبتكين كان من القائلين بفكرة الاكتفاء الذاتى للأمم .

ورأى كروبتكين أن آراءه فى المجتمع القائم على التعاون مهددة بالحجج التى يسوقها فى الرد عليها ونقدها أنصار فكرة أن الإنسان غير أهل للتعاون ، معتمدين فى ذلك على آراء مفسرى مذهب دارون فى النشوء والارتقاء وتأكيدها فكرة تنازع البقاء ، فكان لابد من أن يعمل كروبتكين على مناقشة هذه الآراء والرد عليها وتفنيدها ، وقد مكنته دراسته القديمة للتاريخ الطبيعى من أن يكون قادراً على ذلك ، وقد أعد من أجل ذلك سلسلة من الفصول نشرت فى مجلة القرن التاسع عشر ثم جمعت بعد ذلك فى كتابه المشهور المسمى «التعاون المتبادل» وقد ظهر فى سنة ١٩٠٢ .

ويدلل كروبتكين فى هذا الكتاب على أن تنازع البقاء ليس هو القاعدة العامة فى عالم الحيوان ، ويستشهد فى تأييد رأيه بملاحظاته الخاصة ومشاهدات غيره من العلماء ومعظم الحيوانات وبخاصة هذه الحيوانات التى تعيش جماعات تجرى علاقاتها بعضها ببعض على سنة التعاون ، وفى أوقات الخطر يتجلى تضامنها وتضحياتها بذاتها ، والتفصيلات والحقائق التى جمعها كروبتكين لتدعيم مذهبه تعادل فى كثرتها ما جمعه دارون لإثبات رأيه فى أصل الأنواع ، ولا تترك مجالا للشك فى قيمة التعاون المشترك من الناحية العلمية .

وهو يعزو إلى التضامن المشترك وجود الأجناس الأضعف من الناحية الجسدية ، والأنواع الاجتماعية بالرغم من أن أفرادها قد يكونون ضعاف البنية إلا أن تضامنهم قد يمكنهم من التغلب على الوحوش الضارية التى تعيش منفردة

فى عزلة ، والإنسان مدين ببقائه رغم ضعفه لقدرته على التعاون ، ولا ينكر كروبتكين أن هناك تناحراً على البقاء ، بل هو يذهب إلى أن المنافسة كانت من العوامل الهامة فى التقدم ، وأنه لولا وجودها لتعطل رقى الإنسان ، ولكنه يرى كذلك أن المنافسة يعادلها فى كل مكان مبدأ التعاون المتبادل ، وأن التعاون المتبادل عامل أهم وأبعد أثراً فى تقدم الإنسانية ، وهذا التعاون المتبادل هو أساس المجتمعات الإنسانية ، ويعرض كروبتكين لحياة الإنسان فى مجتمعات الهمج المتخلفين ، ثم فى مدن العصور الوسطى ثم للمجتمعات الحديثة ، ويبين أهمية التعاون فى حياتها .

وقد كان كتابه عن التضامن المتبادل أشبه بمقدمة لكتابه الأخير الذى شغله فى السنوات الأخيرة من حياته واستأثر بجهوده ، وهو كتابه عن الأخلاق ، وعنده أن مصدر تصوراتنا الأخلاقية هو ممارسة التعاون المتبادل ، وقد لعب التعاون المتبادل الدور الرئيسى فى تقدم الإنسانية الأخلاقى .

وبالرغم من أنه كان دائم التفكير فى موضوع هذا الكتاب فإنه لم يكن قد بدأ كتابته حينما قامت الثورة الروسية فى سنة ١٩١٧ ، وكان حينذاك فى الخامسة بعد السبعين من عمره ، فسارع فى العودة إلى روسيا ليقوم بنصيبه فى تجديد بلاده برغم شيخوخته ومرضه وضعف بنيته .

وقد ساءه وأثر فى نفسه وأحزنه أن يرى الحزب القوى فى روسيا والذى أصبح فى يده زمام الأمور وقد انحرف عن الجادة ، وأمعن فى الطغيان والعبث بالحريات ، واضطهد كل من يدافع عن الحرية ، وقتل الكثيرين من الأحرار والثائرين المخلصين ، وملأ السجون والمعتقلات بالباقين منهم ، ولم تجترئ الحكومة الروسية على تهديد كروبتكين والتعرض له لمكانته الفكرية وشهرته

العالمية فى خارج روسيا ، ولكنها منعته من أن يقوم بجولة استعراض للمواد الصناعية فى روسيا .

وقد اقتنع فى آخر الأمر بأنه ليس أمامه سبيل لعمل أى شيء لتحسين أحوال بلاده ، فانسحب إلى قرية ديمتروف النائية المنعزلة ليتم كتابه عن الأخلاق ، وكان الطعام والوقود قليلين ، وربما كان أصعب ما تجشمه من عناء هو أنه كان يعمل بعد أن يرخى الليل سدولة على ضوء مصباح زيتى ضئيل ، وكان المشفقون عليه من أصدقائه يرسلون إليه فى بعض الأحيان الشموع ليستعين بها ، ولم يكن تحت يده سوى عدد قليل من الكتب والمراجع ، ولذا كان يجد صعوبة فى تحقيق ما يريد تحقيقه من المذاهب الأخلاقية والآراء الفلسفية ، وكان يرفه عن نفسه الفينة بعد الفينة بالعزف على البيان ، وبالرغم من ذلك كله فإن الذى كان يؤلمه أشد إيلام وينغص عليه صفوه هو حالة روسيا العامة وما بها من المظالم والاضطهادات ، وقد حاول فى مناسبتين أن يرد حكام روسيا إلى الصواب وينهاهم عن أتباع الأساليب الوحشية مع خصومهم ومخالفيهم فى الرأى ، ولكنه وجد أخيراً أنه من العبث النصح لحكومة قد أسكرها حب القوة وأفقدها العقل والاتزان .

ويقول النقادة المعروف هربرت ريد عن كتابه عن الأخلاق «إنه لم يكتب فى تاريخ الأخلاق أحسن منه» وقد حاول فيه أن يعنى بالغرض الأساسى للأخلاق ، وهو تنظيم علاقة الإنسان بالإنسان ، ومن دواعى الأسف أنه لم تتح له الفرصة لإتمامه ، ولكن الموجود منه يدل على اتجاهاته ويبين جوهر مذهبه وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية ترجمة دقيقة أمينة .

وقراءة هذا الكتاب الحافل بالمعلومات الغزيرة والنظرات السديدة مع الوضوح وصفاء التفكير ونصاعة الحجة من المتع المجدية الشائقة ، والتعاون

عنده أساس الأخلاق ، يضاف إلى ذلك عامل العطف والشعور بآلام الغير وإدراك حاجاته ومطالبه ، وعامل العدالة التى تسوى بين الناس فى الحقوق والالتزامات ، وكروبتكين يعد عالم الفوضويين وأقدر شراح مذهبهم والمفسرين له ، فهو بحق خليفة باكونين ومتمم رسالته .